الفصل التاسع
"إخلاء سبيل"

في صباح اليوم التالي، في مكتب اللواء:

- يعني الولد اعترف على نفسه وبرّأ البنت؟
- بالظبط يا فندم.
- أنا شايف يا سيادة الرائد إنك ناوِي على إطلاق سراحها.
- وجودها هنا مالوش داعي يا فندم.
- إيه اللي مخلّيك متأكد كده إنه مش بيداري عليها؟ أو إنه عايزها تخرج تساعد كارولين من تاني؟
- لأني متأكد يا فندم إن ولَا هي ولَا هو ليهم علاقة بالقضية، ولا من قريب ولا من بعيد سعادتك.
- ازّاي؟! انتَ مش بتقول إنه اعترف؟
- اعترف يا فندم بس مش باللي عمله، باللي حفَظ إنه يقوله.
- انتَ تقصد إنه مجرد طعم تاني لتعطيل سير القضية وتعقيدها.
- بالظبط سيادتك، كل حاجة بتقول إنه مش هو اللي استقبل كارولين ولا عمره شافها حتّى.

أطال اللواء في النظر إليه متسائلًا منتظرًا منه تفسيرًا؛ فاستطرد هشام:

- أولًا يا فندم الشخص اللي شوفناه في الفيديو كان هيئة جسمه وحجمه أكبر من أحمد، ثانيًا لو كان هو المتهم بجَد ماكانْش هيروح شقة المنيل تاني بعد محاولة القبض عليه؛ لأنه هيكون عنده شك إنها متراقبة، تالت حاجة يافندم إني واثق من إن كارولين عمرها ما راحت شقة المنيل، وإن الشقة دى كان مستخبي فيها العنصر المجهول، أو بمعنى أدق تليفونه، المكالمة الوحيدة الحقيقية اللي صدرِت للرقم ده كانت من الفندق، ولما عرفوا إننا كشفناهم سجّلوا مكالمات وهمية وسابوا التليفون في الشقة دي، واللي هي بالمناسبة ولا متأجّرة ولا متباعة، أصحابها هجروها من ١٠ سنين وعايشين حاليًا في فيلا في الشيخ زايد، والعنصر المجهول استغلّ ده كويس.

- امم، تحليل منطقي، أفهم من كده إن شكّك الأولاني لسه قائم؟

- وأكتر من الأول يا فندم.

رد اللواء بروح فكاهية:

- طب يا أخي افصحلي عنه يمكن أقدر أساعدك.

ابتسم هشام قائلًا:

- حضرتك علّمتِنا ما نرميش التّهَم جزافًا بدون دليل، وطول ما أنا مش معايا الدليل مش هقدر أتّهم الشخص ده، وخاصة...

اللواء: وخاصة إنك شاكك في خاين من الجهاز، مش كده؟

اندهش هشام لذكاء اللواء قائلًا:

- ده معناه إن حضرتك عندك نفس الشك!

- إلى حد ما، بس حابب أعرف أسبابك للشك ده.

- شكّي بدأ من ساعة ما كارولين عرفِت بوجود المخبر اللي بيراقبها وهربت منه بالشكل ده، مع إنها داخلة مصر بشخصية جديدة ماعليهاش أي حاجة، والمفروض تكون متأكدة إنها مش مشكوك فيه، بعدها شكّي اتأكد لما عرفت بقُرص التتبّع اللي اتخيّط داخل هدومها، ازّاي قدرِت تكتشفه؟ تالت حاجة بقى ودي الأهم ازّاي عرفت إن الرقم اللي كلمتُه من الفندق بقى متراقب؟ وبناءً على كده سجّلوا مكالمات مزيفة كان مقصود بيها تضلِيلنا، محدّش ممكن يمدّها بكل المعلومات دي غير واحد مننا، وبالتحديد من اللي شغّالين على القضية.

نهض اللواء عن مكتبه يحكّ ذقنه بأصبعيه يفكر في الأمر، ثم قال:

- بس ده كلام خطير يا سيادة الرائد، ولازم تاخد بالك كويس قبل ما تتهم أيّ حد، وإلا العواقب هتكون وخيمة.

أومأ هشام بإدراك: مفهوم يا فندم ... مفهوم.

- طب والبنت دي لو هتفرج عنها لازم تبقى عارف إن حياتها هتكون في خطر، وأظن إنّي من البداية لفَتّ نظرك للنقطة دي.

- اطّمّن سيادتك يا فندم، أنا أكيد عامل حسابي وهيكون عليها مراقبة مشددة.

- ممتاز، تقدر تتفضّل وتوافيني بالتقارير أول بأول.

- أكيد يا فندم، بعد إذن سيادتك.

*****

في مكان آخر صحراوي تمثّل التلال على جانبيه في شموخ، أخذت جنة تركض وحيدة تبحث عن شبح إنسان يساعدها في ذلك المكان المقفر، لكن دون جدوى، واصلَت ركضها بين المرتفعات حتى وصلت آخر الطريق؛ لتجد نفسها أعلى جبل على شفا هوّة على ارتفاع بعيد مرعب، والأكثر فزعًا هي تلك النيران المشتعلة بالأسفل، حاولَت جنّة التراجع، لكن كان هناك رياح خفية تزجّ بها، تدفعها بقوة وقسوة، صرخت بأعلى صوتها، بينما كان نصف جسدها مائلًا إلى السقوط وقد استسلم جسدها للجاذبية من أسفلها وأعلن قلبها الخضوع، وفي لحظة يأسها فوجِئَت بذراعها تجذب ثانية إلى المرتفع وقد تشابك بيدها يدٌ أخرى أكثر قوة، استعاد قلبها خفقه السريع وهي تعاود الحياة ثانية بارتفاع نصف جسدها العلويّ مرة أخرى محاولة رؤية منقذها من تلك الرؤية الضبابية المعبّقة بالرياح والرمال، حتى ظهرت لها ملامحه، أسود العينين حليق اللحية، كثيف الشعر قاسي البنية، عرفته على فورها تحدّق به بعينين فاغرتين دهشة، ومن ثمَّ شهقَت مستعيدة وعيها المفقود ليلة كاملة؛ لتجد نفسها بغرفة بيضاء لم تعرفها من قبل، وحولها أسرتها؛ أبوها وأمها.

انتفضت جالسة وهرعت إليها والدتها تحتضنها بلهفة:

- بنتي.. بنتي حبيبتي، حمدًا لله على سلامتك يا قلبي.

بينما ما زالت جنّة في حالة من التيه والضياع تجاهد لاستيعاب ما يحدث حولها متذكّرة أحداث اليومين السابقين، ثم هتفت بصوت ضعيف تستشعر الأمان من عناق والدتها:

- ماما! إيه اللي حصل؟ وانتوا عرفتوا مكاني ازّاي؟

ربت والدها على رأسها مقبلًا جبهتها هاتفًا:

- حمدًا لله على سلامتك يا حوريتي.

ابتسمَت بوهن وقالت:

- الله يسلّمك يا حبيبي.. ماقولتوليش برضه عرفتوا مكاني ازّاي؟ وإيه اللي جابني هنا؟ احنا في مستشفى، صح؟

كاد والدها يرد، لكن منعه صوت طرقٍ على الباب فنهض، فتحه، وما لبث أن تجهّم وجهه؛ فسمعت جنة صوتًا ألفته في هذين اليومين:

- صباح الخير يا باشمهندس طارق، إيه هتسيبنى واقف ع الباب؟

أشار له طارق بالدخول على مضض قائلًا:

- اتفضل يا حضرة الظابط.

كان لدخول هشام أثرٌ مفزعٌ في قلب جنة، تُرى هل أتى ليعيدها إلى ذلك السجن المقيت أم غرفة التحقيق البغيضة؟! تعلقت أنظارها الفزعة به منتظرة انطلاق لسانه المعتاد لتعرف سبب مجيئه؛ فسمعته يقول موجهًا حديثه إليها:

- ألف سلامة يا آنسة جنة.

أشاحَت بناظريها بعيدًا، ولم ترد؛ فتدخّل والدها قائلًا بضيق:

- الله يسلمك يا سيادة الرائد، ويكون بمعلومك بنتي هترجع معانا على بيتها، انتَ جيتلي امبارح وطمّنتِنا عليه مشكورًا ووعدتنا إنكوا مش هتمسّوا شعرة منها، وإنك واثق في برائتها، وقولتلنا مفيش داعي للمحامي، و..

هشام مقاطعًا: وأنا عند وعدى يا باشمهندس.

كانت جنة ترقب الوضع بدهشة كبيرة، هل كان والداها يعرفان مكانها؟ أذهبَ إلى بيتها ليطمئنهُما عليها.. بل ويثق في براءتها أيضًا؟!

رد والدها بانزعاج:

- ما هو واضح بدليل إن بنتي في المستشفى من امبارح بانهيار عصبي.

أوشك هشام أن يرد، لكن بادرته جنة قائلة:

- بابا، حضرة الظابط مالوش ذنب، بالعكس كان بيعاملني كويس جدًا، أنا بس اللي كنت مخضوضة شوية من الموقف.

حدجها هشام بنظرة غير مفهومة، ثم قال:

- ومع ذلك بعتذر لحضرتك يا باشمهندس طارق، وزي ما وعَدْت حضرتك جنّة.. أقصد الآنسة جنة هتخرج النهاردة وتمارس حياتها بشكل طبيعي جدًا، كل اللي عليها بس إننا وقت ما نحتاجها نلاقيها.

جنة باضطراب:

- يعني إيه؟! أنا لسّه مشتبه فيّا؟

مطّ هشام فمه قائلًا:

- آنسة جنة، القضية كبيرة وكل شوية بيظهر فيها تطورات، أنا عارف إنكوا مش هتستوعبوا ده بس دي إجراءات وقوانين، كل اللي أقدر أقوله إني واثق من براءتك، ولحد ما أمسك المجرم الحقيقي ممكن يكون فيه خطر عليكي، واا.. برجو إن وقت مانحتاجك نلاقيكي عشان ماتزيديش الشبهات حواليكي، لكن بشكل رسمي انتِ مش عليكي أي حاجة، وتقدري ترجعي جامعتك بدون أي مشاكل، ومع ذلك يُفضّل ترتاحي في البيت اليومين دول.. ده أَأْمَن ليكي.

زمّت فمها بسخط، وأطرقَت برأسها الناحية الأخرى، بينما ظل نظره مثبتًا عليها، ونادى العسكري من الخارج؛ فدلف إليه ومعه دفتر أعطاه لجنة لكَي توقع به؛ ففعلت، حينذاك وصل مسامعهم صوت شاب مرح:

- هاا؟ فاقت ولا لسّه بتدلّع؟

ارتسمت البسمة على محياها، ما إن أبصرت أحمد ابن خالتها وأخاها الروحي، لاحظ هشام ابتسامتها؛ فالتفت بحاجب مرتفع إلى صاحب الصوت، والذي اتجه إليها مباشرة، وجلس قبالتها على فراشها مبتهجًا وأمسك يديها يشد عليهما قائلًا:

- إيه بقى يا ست چيني؟ مش كفاية دلع بقى ونطلع من هنا! انتِ عارفة أنا مابطِيقش جو المستشفيات ده.

رمقه هشام بنظرة جامدة يفكر في نفسه "ويطلع مين حيلتها ده؟ التقارير بتقول إنها وحيدة أبوها وأمها، ومش مخطوبة كمان، أومال مين ده؟!".

قطع تساؤلاته صوت طارق قائلًا:

- من بعد إذنك يا سيادة الرائد ممكن كلمتين برّه؟

رد هشام وما زال نظره مثبتًا على جنة وأحمد:

- آه طبعًا، اتفضل!

خرج هشام مع طارق، واستقرّا أمام الغرفة، حيث ابتدر هشام متسائلًا:

- خير يا باشمهندس؟

طارق بقلق:

- أرجوك يا سيادة الرائد تقولّي الحقيقة، بنتي فيه خطر عليها؟ يعني هي ممكن تبقى متهمة بقضية زي دي؟

هشام بملامح هادئة: ما تقلقش يا باشمهندس، كل حاجة هتبقَى تمام وبنتك مش هيمسّها أي ضرر.

طارق: طب لو سمحت أنا كلمت محامي صديقي، أرجوك تطلّعه على القضية وموقف بنتي منها.

هشام: صدقني حضرتك مفيش داعي لكل ده، ولو احتاجناها تاني في أي استجواب ممكن نسمح لوجود المحامي، ثِق فيّا.

هز طارق رأسه باطمئنان يشوبه بعض القلق، واستأذن منه هشام مغادرًا المشفى.

*****

في الغرفة:

رن هاتف أحمد؛ فهمهم قائلًا:

- ده الاتصال العشرين يا مالك، صبّرني يا رب.
- أيوه يا عم مالك؟
- مابتردش على طول ليه يا ابني انت؟
- ماسمعتوش يا عم، كنت بخلص أوراق المستشفى.
- طب ها؟ جنة عاملة إيه دلوقتي؟ فاقت ولا لسّه؟
- فاقت يا عم وزيّ القردة أهيه.
- قرد لما ينطّطَك يا بعيد، طيب سلّملي عليها، وأنا هخلص شغل وأجيلكوا على طول.
- على طول ولا عرض؟
- تيت تيت تيت
- يا ابن الـ....

ضحكت جنة قائلة: مستنّي منه إيه بعد القلشة الرخيصة دي؟!

أحمد متصنعًا التبرّم:

- حتى انتِ! لعلمك أنا عمَلْت كده بس عشان أضحكك.

ربتَت جنة على ذراعه قائلة بامتنان:

- ربنا يخليك ليّا.

استقلّ هشام سيارته جالسًا خلف المقود، يتسلّل إلى قلبه شعور بالحنق والضيق لا يدرك مغزاه، ألقى نظرة أخيرة نحو المشفى، ثم انطلق بسيارته بعيدًا مخلِّفا عنه سحابة من السخط والانزعاج غير المبرر.

*****

في منزل طارق كانت سلوى خالة جنة وزوجة ابنها سارة في انتظارهم يعدّان الطعام والشراب لاستقبالهم، وما إن فرغتا من أعمالهما حتى سمعتا صوت الباب يُفتح، ودلف منه طارق متمتمًا:

- تعالِي يا حبيبتي، نوّرتي بيتك.

هرعت إليها سارة بقلق، ودّها لو تطمئِنّ عليها ليرتاح قلبها؛ فهي صديقة طفولتها وأعز الأقربين إليها، احتضنَتْها بلهفة، ثم ابتعدت عنها قليلًا وأمسكت بكفيها هاتفة:

- جنة، حبيبتي انتِ كويسة؟

تألّمت جنة؛ فقد كانت سارة تضغط على مكان الكانيولا بيدها؛ فرفعت سارة يدها معتذرة، بينما ردّت جنة ببسمة واهنة:

- أنا بخير يا سارة ماتقلقيش.

جاءهم صوت خالتها بعدما حمحَمَت حرجًا من ظنونها السابقة:

- حبيبتي، حمدًا لله على سلامتك.

جنة: الله يسلمك يا خالتو.

سلوى: إيه! هتفضلوا واقفين ع الباب كده؟! ادخلوا كمّلوا سلامات جوّه، الأكل هيبرد، عملتلِك بقى يا حبيبتي الحمام المحشي بالفريك زي ما بتحبيه، عشان تتغذّي كده وتخفّي بسرعة.

جنة: تعبتِي نفسك يا خالتو، ماكانش له لزوم كل ده.

سلوى: ازّاي بقى؟ احنا عندنا كام جنة!

منال: ربنا يخلّيكي لينا يا سلوى.

تدخّل أحمد بمرحه المعتاد: طب إيه؟ أنا واقع من الجوع، لو هتفضلُوا تتكلّموا كده فأنا مضطر...

سلوى بلهجة تهديد: مضطر إيه يا ابن سلوى؟!

أحمد: مضطرّ أستنّى يعني هعمل إيه؟

سلوى: آه بحسب.

تمتم بسره: ده أنا ابنك على فكرة، أومّال لو كنت ابن ضرتك!

لاحظته جنة؛ فقالت مشاكسة:

- بتقول حاجة يا أحمد؟

همحم قائلًا:

- احم، بقول هو.. أومال مالك اتأخر ليه؟

لم تستطع جنة كبت ضحكتها، بينما ضيّق أحمد عينيه متوعدًا إياها معيدًا إلى روحها القليل من البهجة التى فقدتها في اليومين السابقين.